ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

العلاقات العثمانية ـ الجزائرية 1519-1830 من خلال أرشيف المكتبة الوطنية " دراسة نموذجية "

Ottoman-Algerian relations 1519 - 1830 through the archives of the National Library "A typical study"

بلال مريم [*1]، meriem.belal@univ-alger2.dz
مخبر المخطوطات، جامعة أبو القاسم سعد اللّه- الجزائر2
محمد دراج[2]، derradj2010@gmail.com

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول
2021-03-09	2022-12-04

ملخص

تعتبر الوثائق الأرشيفية التي تزخر بها مراكز الأرشيف في الجزائر وتركيا من أهم المصادر التي تسلط الضوء على طبيعة العلاقات العثمانية الجزائرية. وهذه الدراسة تهدف إلى استنطاق الوثائق المحفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية، والتي تعود إلى مرحلة شديدة الحساسية من تاريخ الجزائر الحديث. فالوثائق التي تمت دراستها تعود إلى نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 الميلاديين، وهي الفترة التي كانت فيها الجزائر، وكذلك الدولة العثمانية تمُرّان بأزمات شديدة نتيجة للتحولات السياسية والاقتصادية التي عرفتها أوروبا جهة؛ بالإضافة إلى التحولات التي كانت تعيشها الدولة العثمانية. الأمر الذي انعكس بشكل سلبي عليها في مركز الدولة وفي مختلف الولايات التي كانت مرتبطة بها. وكان من أسوء النتائج المترتبة على ذلك، الاحتلال الفرنسي للجزائر، وفقدان الدولة العثمانية لأول وأهم إيالة لها في المغرب العربي والإسلامي.

كلمات مفتاحية: الوثائق؛ العلاقات؛ الأرشيف؛ الجزائر؛ الإمبراطورية العثمانية.

Abstract

The archival documents of the archive centers in Algeria and Turkey are among the most important sources that highlight the nature of the Ottoman-Algerian relations. This study aims at questioning the archives of the Algerian National Library, which dates back to a highly sensitive stage in Algeria's recent history. The documents examined date back to the end of the 18th and early 19th centuries, during which Algeria, as well as the Ottoman Empire, were going through severe crises as a result of the political and economic transformations experienced by Europe, as well as the changes experienced by the Ottoman Empire. This has been negatively reflected in the status of the state and in the various states to which it was associated. One of the worst consequences of this was the French occupation of Algeria and the loss of the Ottoman Empire to its first and most important Iyala in the Arab and Islamic Maghreb.

Keywords: Documents; relations ; archives ; Algeria ; Ottoman Empire.

*المؤلف المراسل

مقدمة

مما لا ريب فيه أن العلاقات العثمانية الجزائرية ضاربة في عمق التاريخ الحديث، واستغرقت ما يزيد عن ثلاثة قرون من عمر الدولتين. وشملت مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية والأمنية والسياسية. وقد كان الإحساس المشترك بالخطر الأجنبي والمسؤولية المشتركة على أمن وسلامة حدود دار الإسلام في غرب العالم الإسلامي، مبررا أساسيا لاستمرار العلاقة بين الجزائر والدولة العثمانية، بالرغم مما شاب تلك العلاقة من ظروف اتسمت بالتوتر والمناكفة السياسية، نتيجة لتناقض المصالح السياسية الآنية بين الدولتين، أو نتيجة لسوء أو أخطاء في تقدير مواقف الطرفين. أو لأسباب أخرى ليس هذا مجال سردها.

ومن المعلوم أيضا أن الجانب العسكري والأمني قد أخذ حيّزا كبيرا من هذه العلاقة؛ نتيجة لحالة الحرب شبه الدائمة والمفتوحة على كافة المصاريع بين الجزائر والدولة العثمانية من جهة، والممالك الأوربية من جهة أخرى. وعليه؛ فإنه من الطبيعي أن يكون الرصيد الأرشيفي الذي يسلط الضوء على تفاصيل وحيثيات هذا الجانب وافرا سواء في دور الأرشيف الجزائرية، أو في مركز الدولة العثمانية، أو في الإيالات العربية المغاربية والمشرقية، كما في بقية الدول الأوربية التي كانت لها علاقة بين الجزائر، أو بينها وبين الدولة العثمانية. وقد تم اختيار محفوظات أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية نموذجا لدراسة مدى توفر ومحتوى الوثائق التي شكلت التاريخ المشترك بين الدولة العثمانية والجزائر.

والإشكالية المحورية لهذا المقال هي: ما طبيعة محتوى الوثائق والمراسلات التي كانت بين الجزائر والدولة العثمانية خلال العصر الحديث، وهل تسلط هذه الوثائق على مختلف جوانب تاريخ الجزائر في العهد العثماني؟

وللإجابة على هذه الإشكالية نقدم الفرضيتين التاليتين: تعدّ وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية من أهم مصادر تاريخ الجزائر الحديث، خاصة وأن العديد منها لم يوظف في الكتابات التاريخية.

تشمل هذه الوثائق أهم القضايا التي عاشتها الجزائر في العهد العثماني، لكن ذلك لا ينفي وجود وثائق أخرى غير ما تم الاطلاع عليه في هذه الدراسة. ولإنجاز هذه الدراسة تم اختيار حوالي 80 وثيقة من الوثائق المحفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية، ووضعتها قيد الدراسة لتتبع مختلف جوانب وتفاصيل العلاقات العثمانية الجزائرية.

1. جذور العلاقات العثمانية الجزائرية

يعود تاريخ العلاقة بين الطرفين إلى تاريخ انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية في القرن 16م (دحماني، 2009: 20،21)؛ وذلك نظرا للأوضاع التي شهدتها الجزائر في تلك الفترة، والمتمثلة في الهجمات الأوروبية على سواحلها. الأمر الذي تزامن مع ظهور الإخوة بربروس وعملياتهم الواسعة من الجهاد البحري في غرب البحر الأبيض المتوسط. جراء اشتداد الصراع بين القوة المسيحية في الأندلس وتزايد عمليات القرصنة خلال فترة القرن 16م (المزاري، 1990: 250). وقد كان الفضل في ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية يعود إلى الأخوين بربروس اللذين لعبا دورًا كبيرًا في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية. الأمر الذي ساهم في تحريرها من الاحتلال الإسباني وتمكينها من التصدي للحملات الأوروبية طيلة ثلاثة قرون.

وقد كان الإخوة بربروس قد استقروا بجزيرة جربة لقربها من الأراضي المسيحية كمالطا وصقلية وجنوب إيطاليا (الزبيري، 1985: 85)، بعد قبول حاكمها أبي عبد اللّه محمد بن الحسن الحفصي 932-989م ذلك (ابن أبي الضياف، 1963: 9). وتمكن الإخوة بربروس بعدها من تأسيس أسطول صغير شديد الفعالية بعد التحاق البحارة الأتراك بهم، من بينهم يحي رئيس، كما قام الإخوة بربروس بجعل مرسى حلق الواد قاعدة لهم بعد الاتفاق مع السلطان الحفصي مقابل دفع خُمس غنائمهم إلى خزينة الدولة الحفصية (بربروس، 2010: 46).

وبعد أن شاع نشاط الإخوة بربروس والانتصارات التي حققوها على النصارى في غرب المتوسط وإنقاذ المسلمين الأندلسيين بين 1504-1510م (جوليان، 1978: 360)، قام أهالي مدينة بجاية بعد أن اشتد عليهم الوضع جراء الاحتلال الإسباني لها سنة 916هـ/1510م بالاستنجاد بالإخوة بربروس، فقبل الأخوان طلب المساعدة. وفرضا حصارا شديدا على بجاية، لكن لم يتمكنا من تحريرها نظرا لقوة التحصينات الإسبانية بها (أنظر التعليق رقم: 1)، ومن هناك أرسل عروج سفينة للسلطان العثماني سليم الأول (1512-1520) سنة 921هـ/1515م بقيادة بيري رايس يشرح له كل ما ينجزانه وأوضاع غرب المتوسط إضافة إلى العديد من الهدايا، ففرح السلطان بذلك وبعث له سفينتين وثماني قطع بحرية (بربروس،2010: 66). وفي ذلك الوقت تمكن الأخوان بربروس من فتح قلعة جيجل وجعلاها قاعدة لعملياتهم الحربية (دراج، 2015: 176).

ليصلهما بعدها استنجاد أهالي مدينة الجزائر، بعدما وقَّع حاكمها سالم التومي اتفاقية مع الإسبان وأصبحت بموجبها مدينة الجزائر خاضعة لها على غرار مختلف المدن الساحلية كمستغانم وتنس وشرشال ودلس، وقد تمكن الإخوة بربروس من استرجاع مدينة الجزائر من يد الإسبان وتحرير غيرها من المدن مثل مدينة جيجل سنة 920هـ/1514م، وقلعة تنس سنة 924هـ/1518م وغيرها من المدن (دراج، 2012: 203-210). وبعد ذلك قام أهالي مدينة تلمسان أيضا بالاستنجاد بعروج لتحرير المدينة التي كانت خاضعة للسيطرة الإسبانية. فاتّجه حينها عروج إليها، لكنه فشل في ذلك نظرا لقوة الجيش الإسباني والمساندة القوية له من قبل القبائل التابعة للسلطان الزياني. واستشهد عروج وأخوه إسحاق بعدما أخضعا قلعة بني راشد سنة 924هـ/1518م (دراج، 2012: 218-222).

فبقي خير الدين وحده في المجابهة وسط الأخطار ونقص الذخيرة، وبعد أن قرر العودة إلى إستانبول ونظرا لإلحاح أهالي الجزائر ببقائه، لم يجد سوى وسيلة وحيدة وهي القيام بمراسلة السلطان العثماني والاستنجاد به للتصدي للخطر الإسباني (بربوس، 2010:119). فوافق الزعماء، وتمّ انطلاق الوفد إلى إستانبول بقيادة الشيخ أبي العباس أحمد بن القاضي حاملا رسالة أهالي الجزائر طالبين الانضمام إلى الدولة العثمانية حاملين أيضا هدايا إلى السلطان (دراج، 2010: 28). وبعد موافقة السلطان العثماني سليم الأول بانضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية سنة 925هـ/1519م، قام بتعيين خير الدين بمنصب بيلرباي Beylerbeyعلى الجزائر بعدما أرسل له قرار التعيين وسيفا مُرصعا وخِلعة مُذهبة وراية الإمارة (مجهول، 2009: 25)، كما أرسل إليه سفينتين مشحونتين بالعتاد محملتين بـ: 2000 إنكشاري (دراج، 2015: 185).

لقد كان هذا الدعم العسكري بالرغم من رمزيته يُعدّ أول تعاون عسكري بين الجزائر والدولة العثمانية، وعُدّت الفرقة الإنكشارية التي تمّ إرسالها أول عملية تجنيد لصالح الجزائر، ومنذ هذا التاريخ بدأت عمليات التجنيد تعمل في الجزائر، واستمر ذلك إلى نهاية الحكم العثماني بها.

2. طبيعة الوثائق الأرشيفية بالمكتبة الوطنية الجزائرية

قبل الشروع في تتبع مجالات العلاقات العثمانية – الجزائرية من خلال وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية، نرى أنه من الضروري التذكير بأن المكتبة الوطنية الجزائرية تحتوي على عدد كبير من الوثائق الأرشيفية التي تسلّط الضوء على مجالات مختلفة من العلاقات العثمانية الجزائرية. ولا زال معظم هذه الوثائق لم يحظ بالدراسة الكافية التي تستحقها. ولكي يتسنى للباحث استكناه الحقائق المستخلصة من هذه الوثائق، نذكّر بجملة من الملاحظات المنهجية والتقنية ذات العلاقة بموضوع الدراسة، نشير إليها فيما يلي:

1.2- معظم الوثائق التي تمت مراجعتها تعود إلى الفترة الأخيرة من الحكم العثماني للجزائر. أي إلى نهاية القرن 18 وبداية القرن 19. وهي الفترة التي تميزت بتصعيد شديد في العلاقات العثمانية الأوربية من جهة؛ والعلاقات الجزائرية الأوربية من جهة ثانية. الأمر الذي ترتب عنه تجاذبات كثيرة في المواقف السياسية للدولة العثمانية والجزائر، نتيجة لتعقيدات الظروف السياسية والأمنية في تلك الفترة. وهو ما يتضح من خلال التدقيق في المراسلات السياسية بين الدولة العثمانية ودايات الجزائر.

2.2- الوثائق التي وضعت قيد الدراسة عبارة عن أصول كُتِبَتْ في الأساس باللغة التركية العثمانية. وتمت ترجمتها إلى اللغة العربية. وقليل منها تُرجم عن النسخ العربية إلى اللغة الفرنسية. وهذه الوثائق هي المصنّفة ضمن المجموعة المعروفة بـ **"الرصيد الجديد"**.

3.2- لقد تمّ اختيار المجموعتين الأرشيفيتين اللتين تحملان رقم: 3190 و3205 لتكونا نموذجا للدراسة. مع العلم أن ثَمَّةَ وثائق كثيرة توجد ضمن مجموعات أخرى. هذه الوثائق أيضا من شأنها أن تسلط الضوء على جوانب مختلفة من أوجه العلاقات العثمانية الجزائرية.

4.2- المجموعة الأرشيفية رقم: 3190 تتميز بكونها ترجمة عربية لأصول تركية؛ بينما تمثل المجموعة 3205 مجموعة أرشيفية تمت ترجمتها عن أصول تركية، ثم ترجمت مرة أخرى من اللغة العربية إلى الفرنسية.

5.2 - الأصول التركية لهذه الوثائق، تعدّ في حكم المفقودة. ولا نعرف على وجه الدقة إن كان لهذه الوثائق نسخ تركية محفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء التركي بإستانبول، أو في غيره من دور الأرشيف التركية أو الأجنبية أم لا. وللإجابة على هذا التساؤل لا بدّ من القيام بعملية بحث واسعة في مختلف دور الأرشيف الأخرى قبل الحكم بضياعها وانعدام وجودها بشكل نهائي.

3. العلاقات بين الدولة العثمانية والجزائر من خلال وثائق المكتبة الوطنية الجزائرية

عندما يُدقق الدارس لتاريخ العلاقات العثمانية ـ الجزائرية سوف يُلَاحظ أن هذه العلاقات لم تكن مقتصرة على جانب واحد فقط؛ بل كانت تغطي مختلف الجوانب الاستراتيجية والأمنية والسياسية التي تهُم كلاّ من الجزائر والدولة العثمانية. ومن أهم المجالات التي شملتها وثائق المكتبة الوطنية ما يلي:

1.3تعيين وإعادة تعيين بيلربايات الجزائر من طرف السلطان

تضمّن رصيد المكتبة الوطنية عشرات المراسيم السلطانية المتعلقة بتعيين ولاة الجزائر أو إعادة تثبيتهم في مناصبهم. نذكر منها على سبيل المثال: الفرمان السلطاني (أنظر التعليق رقم: 2) المرسل من السلطان محمود خان الأول (1730-1754م) إلى والي جزائر الغرب عبدي باشا سنة 1143هـ/1730م. المتضمن إعادة تعيينه بيلرباي (أنظر التعليق رقم: 3) على الجزائر (المجموعة 3205، الملف 1، الوثيقة رقم: B.T 38). وكذا الفرمان العالي الذي أرسله السلطان عثمان الثالث (1755-1757م) إلى والي الجزائر الداي علي باشا سنة 1168هـ/ 1755م المتضمن تعيين هذا الأخير باي البايات على جزائر الغرب بعد وفاة الداي محمد باشا (المجموعة 3205، الملف 1، الوثيقة رقم: 03 B.T). وفي الموضوع نفسه نجد ثلاثة مراسيم سلطانية (فرمانات)صادرة من السلطان مصطفى الثالث(1757-1774م) في السنوات 1172هـ/1759م، 1174هـ/1761م، 1177هـ/1764م تتضمن إعادة تثبيت والي الجزائر الداي علي باشا في منصبه تقديرا لجهوده وأهليته لهذه المسؤولية (أنظر التعليق رقم: 4).

ومثل هذا الفرمان، مرسوم آخر صدر من السلطان المذكور سنة 1181هـ/1767م، يأمر فيه بإعادة تعيين الداي محمد باشا على الجزائر بالرتبة نفسها وبالصلاحيات نفسها التي كانت عليها في ولايته السابقة (المجموعة 3205، الملف 1، الوثيقة رقم: B.T14). كما تكرر تعيين والي جزائر الغرب حسين باشا في 03 شوال 1236هـ/ 1821م. وذلك بناء على فرمان صادر من السلطان محمود خان الثاني(1808-1839م)، (المجموعة 3109، الوثيقة رقم: 32).

2.3 - تدخل السلطان لتسوية الخلافات بين إيالة الجزائر والدول الأوربية

بالرغم من استقلالية السياسة الخارجية لإيالة (أنظر التعليق رقم: 5) الجزائر في علاقاتها مع الدول الأوربية، إلا أنه كان من الواجب عليها ألا تتعارض مع السياسة الخارجية للدولة العثمانية. إذ لم يكن بوسع الجزائر أن تعلن الحرب على دولة معاهدة للدولة العلية، كما لم يكن لها أن تسالم دولة معادية لهذه الأخيرة. والموقف نفسه كان على الدولة العثمانية أن تتخذه في سياستها الخارجية عندما يتعلق الأمر بالجزائر. فلم تكن تتخذ مواقف مسالمة لدولة معادية للجزائر، ولا معادية لدولة صديقة للجزائر.

وفي ضوء هذين المبدأين، كان يحدث أن يقوم غزاة البحر الجزائريون من تلقاء أنفسهم أو بإيعاز من ولاة الجزائر أو على الأقل بغض الطرف منهم - بخرق هذا المبدأ. ويحدث أن يتعرضوا للسفن التابعة لدولة صديقة للدولة العثمانية، فتقوم تلك الدولة بتقديم شكوى إلى السلطان العثماني. فيتدخل هذا الأخير لإصلاح الأمر بتسوية الخلافات بين الإيالة وتلك الدولة الأوروبية، أو بتصويب الأخطاء التي يرتكبها أولئك البحارة، أو حتى السلطات العليا في الجزائر. ومن أمثلة الفرمانات التي أرسلت إلى الجزائر، والمتعلقة بهذا الموضوع، تدخّل السلطان العثماني عثمان الثالث مستفسرا عن سبب عدم إطاعة أوجاق (أنظر التعليق رقم: 6) الجزائر لأوامر السلطان، المتعلقة بضرورة عدم المساس بأي شخص سويدي، بحكم المعاهدة التي كانت تربط الدولة العلية مع السويد. فأرسل السلطان لأجل ذلك فرمانا إلى داي الجزائر الداي علي باشا سنة 1170هـ/ 1756م، يأمره بإعادة ممتلكات القنصل السويدي وتعويض الخسائر التي لحقت به (المجموعة 3205، الوثيقة رقم: A05). وكذلك الفرمان الذي أرسله السلطان المذكور إلى الداي علي باشا في أواخر جمادى الأولى 1170هـ/ 1756م المتعلق بالشكوى التي تقدم بها السفير الهولندي لدى الباب العالي (أنظر التعليق رقم: 7).

والتي ادّعى فيها بأن الجزائريين نهبوا مقرّ قنصلية بلاده عندما هجموا على تونس. وقد لام السلطان في هذا الفرمان الجزائريين على عدم إخباره بالحادثة، وأمرهم بإعادة كل ما أخذوه من دار القنصل الهولندي، مادامت بلاده لها معاهدة صلح مع الباب العالي (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 04).

3.3 الإعلام بعقد الدولة العلية معاهدة سلام أو صلح مع دولة أوربية أو أكثر

وحتى لا تتصادم السياسة الخارجية للجزائر مع السياسة الخارجية للدولة العلية، كان السلطان يرسل أوامر سلطانية إلى دايات الجزائر يعلمهم فيها بعقد الدولة العلية لمعاهدات صداقة أو هدنة مع الدول الأوروبية. الأمر الذي يستوجب مراعاة هذه المعاهدات، وذلك بعدم التعرض لسفن هذه الدول، وضرورة إعادة ما تم الاستيلاء عليه من طرف بحارة الجزائر، وتعويض ما تم إتلافه أو استهلاكه. ومن أمثلة الأوامر التي تبين ذلك، الفرمان السلطاني الصادر عن السلطان سليم الثالث(1789-1808م)، والموجه إلى الوزراء والقضاة والحكام ومنهم دايات جزائر الغرب سنة 1212هـ/ 1797م المتضمن إبلاغهم بانعقاد صلح بين النمسا والدولة العلية. وبناء على ذلك فإن السلطان يأمر بعدم التعرض لتجار النمسا وسفنهم، والعمل بما جاء في مضمون المعاهدة ومساعدة قبطانات النمسا (المجموعة 3205، الوثيقة رقم:B22 ، C22، D22). وفي هذا السياق ورد فرمان آخر صادر عن السلطان محمود الثاني أرسله إلى الداي عمر باشا في أواخر شوال سنة 1230ه/ 1815م، يتضمن أمرا بالإفراج عن سفينة نمساوية استولى عليها رؤساء البحر الجزائريون (المجموعة 3190، الوثيقة: رقم 29).

وكذلك الفرمان الصادر عن السلطان نفسه، والمرسل والي جزائر الغرب سنة 1215هـ/ 1800م، المتضمن الإعلام بعقد معاهدة صلح بين روسيا والدولة العلية؛ والأمر بالإفراج عن سفينة روسية تمّ حجزها، والأمر بتعويض الخسائر، وتحرير أحد التجار الروس وإعادة ممتلكاته التي سلبت منه من طرف أحد غزاة البحر التابعين للجزائر (المجموعة 3205، الوثيقة رقم: 21 A).

ومن الوثائق التي تسلط الضوء على مختلف جوانب التنسيق السياسي في العلاقات والمواقف الدولية، الفرمان السلطاني الذي أرسله السلطان مصطفى باشا إلى البيلرباي علي باشا في أواخر ذي القعدة سنة 1172هـ/ 1758م الذي أمر فيه الجزائريين بتجنّب مهاجمة السفن التابعة لإمارة دوبروفينيك التي تعرف في المصادر العثمانية بإمارة راقوزة أو دوبروفينيك، وإعادة السفينة التي غنمت منها، لأن رعاياها تابعون للدولة العلية ويدفعون الجزية للباب العالي (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 10).

4.3 السماح للجزائريين بتجنيد الشباب بناء على طلب وكيل الجزائر في إستانبول

يعدّ تجنيد الشباب أحد القضايا الأساسية في العلاقة بين الدولة العثمانية والجزائر. حيث كان يتم تجنيد الشباب في مختلف السواحل العثمانية، وجلبهم للعمل في الجزائر. ولتحقيق ذلك تم تشكيل ممثليات للجزائر في إستانبولİstanbul وأضنةAdana ، وإزميرİzmir وأنطاليةAntalya وغيرها من سواحل الأناضول. وعليه؛ فإنه من الطبيعي أن يزخر أرشيف المكتبة الوطنية بعدد مهم من الوثائق التي تسلط الضوء على هذه القضية، بشكل يمكّن الباحث من معرفة ظروف وطبيعة ومجالات تجنيد الشباب العثماني للخدمة العسكرية في الجزائر. ومن أمثلة الوثائق التي تحتفظ بها المكتبة الوطنية الجزائرية، فرمان من السلطان سليم الثالث إلى الحكام والعلماء والضباط في الأناضول، والمرسلة في أواسط 1210هـ/1795م المتضمن تجنيد الجزائريين استجابة لطلب وكيلهم في إستانبول المدعو ثابت أفندي (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 20).

كما تضمنت الوثائق تسليط الضوء على الأزمات التي كانت تنشأ نتيجة لتجاوزات البحارة الجزائريين باعتراضهم للسفن التابعة للدول المرتبطة بمعاهدات مع الدولة العثمانية، أو باعتراضهم لسفن رعايا الدولة العلية. فكان السلطان يصدر فرمانات تُمنع بموجبها الجزائر من تجنيد الشباب في الأناضول. وكان الولاة يسارعون إلى الاعتذار للسلطان واتخاذ الإجراءات اللازمة لتصحيح الموقف. فيصدر السلطان تَبَعًا لذلك فرمانا يقضي برفع الحظر عن التجنيد للعمل في الجزائر. ومن بين الوثائق التي تورد معلومات مهمة جدا تخص هذا الموضوع، الفرمان الذي أصدره السلطان محمود الثاني المؤرخ في أوائل رمضان 1230هـ/1815م، والمرسل إلى الداي عمر باشا يبلغه فيه بتراجع الباب العالي عن قراره بمنع الجزائريين من تجنيد الشباب العثماني في الأناضول مقابل تَوَقُّفِهِمْ عن اعتراض رعايا الدولة العلية، والدول التي لها علاقات معها (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 25).

5.3 إرسال معدات عسكرية بناء على طلب من بيلرباي الجزائر

حظيت العلاقات العثمانية الجزائرية في شقّها العسكري باهتمام كبير من الطرفين. وذلك لأن حماية الجزائر كان يدخل ضمن أولويات السياسة الخارجية للدولة العثمانية في غرب العالم الإسلامي. وعليه، فإنه من الطبيعي أن يكون الدعم العسكري واللوجستي أحد المسائل التي تطرقت إليها المراسلات بين الجزائر والدولة العلية.

وعند التدقيق في وثائق المكتبة الوطنية التي تناولت هذا الموضوع، يُلاحظ وجود عدة مراسيم سلطانية موجهة إلى بيلرباي الجزائر، يعلمه فيها بموافقته على تزويد إيالة الجزائر بمعدات عسكرية، بناء على طلب هذا الأخير. ومن أمثلة ذلك الفرمان الصادر عن السلطان محمود الثاني الموجه إلى داي الجزائر حسين باشا سنة 1234هـ/1819م، يعلمه بموافقته على تزويد الجزائر بسفينة حربية مجهزة بالمعدات العسكرية وعدة مدافع (المجموعة 3205، الملف 1، الوثيقة رقم: B.T 32). وقبل ذلك، كان السلطان قد أصدر فرمانا مؤرخا في أواسط ربيع الأول سنة 1232هـ/ 1817م، يتضمن إرسال عدة سفن محمّلة بالمعدات العسكرية إلى الجزائر بناء على طلب الداي عمر باشا (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 30). وللغرض نفسه أيضا أصدر السلطان نفسه فرمانا في أواخر صفر 1235هـ/1820م أرسله إلى الداي حسين باشا يقضي بإرسال معدات عسكرية (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 32). وهكذا نلاحظ أن تزويد الجزائر بما تحتاجه من المعدات العسكرية لم يتوقف، كما أنه لم يكن يفصل بين الشحنة والأخرى فاصل زمني كبير. وكانت تتجدد بناء على طلب الولاة العثمانيين في الجزائر.

6.3 الأمر بإرسال وحدات البحرية الجزائرية لدعم وحدات الأسطول العثماني في معاركه البحرية

ومن الجوانب العسكرية المهمة التي شملتها العلاقات العثمانية الجزائرية، مشاركة وحدات البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية في مختلف جبهات البحر المتوسط. ومن أمثلة ذلك الفرمان السلطاني الصادر عن السلطان محمود الثاني إلى قبطان أوجاق جزاير الغرب مصطفى قبطان سنة 1240هـ/1825م يأمره فيه بالالتحاق بسواحل اليونان للمشاركة في حرب اليونان إلى جانب الأسطول العثماني (المجموعة 3205، الوثيقة رقم: A 36). كما نجد الفرمان الذي أرسله السلطان محمود الثاني أو القبطان داريا إلى حسين باشا سنة 1244هـ/ 1829م يُعلمه بتفاصيل عن الحرب العثمانية الروسية الواقعة بينهما، ومن أجل ذلك يقوم الباب العالي بالتجهيزات والاستعدادات لتلك الحرب، ولأجل ذلك يطلب من داي الجزائر إرسال سفن الوحدات البحرية الجزائرية والجنود من الكبير والصغير مع سفنهم لمساعدة الدولة العثمانية في الحرب الروسية ولنصرة الدين، ويأمره بتوجيهها إلى ترسانة

الدولة العلية ليتم تجهيزها للحرب، كما يطلب منه إرسالها في فصل الربيع، وقد تمّ إصدار أمر عال بخصوص ذلك، ويعلمه أنه وَجَب عليهم الحضور وفي حال تعذرهم بحصار أقدنيز(أنظر التعليق رقم: 7)، أو غيره من الحجج، فإن القدوم واجب في كل الأحوال. وستكون هزيمة العدو في الوقت القريب إن شاء اللّه. كما يعلمه أنه إذا تعذر عليهم إرسال السفن إلى إستانبول فيرسلوها إلى الإسكندرية لتلتقي هناك مع دوننما (أنظر التعليق رقم: 8)، الباب العالي والأسطول المصري، والتوجه من هناك إلى الآستانة.

7.3 الإعلام بولادة ابن أو بنت للسلطان، والأمر بإقامة احتفالات رسمية بهذه المناسبة

شملت المراسلات المتبادلة بين الدولة العلية والجزائر، مجالات ذات بعد اجتماعي وسياسي في الوقت نفسه، ونعني بها الأمر بالإعلان في الأماكن العامة عن ولادة ابن أو بنت للسلطان العثماني، وإقامة احتفالات رسمية بهذه المناسبة. وقد كانت هذه الاحتفالات تقام بناء على أوامر سلطانية ترد من الباب العالي. ومن أمثلة ذلك الفرمان الذي أرسله السلطان مصطفى الثالث إلى الداي محمد باشا في أواسط شعبان سنة 1180هـ/1766م. الذي تضمن الإعلام بولادة ابن للسلطان، وأمره بإجراء مراسيم الاحتفال التقليدي بإطلاق المدافع والدعاء للمولود الجديد من طرف العلماء والصلحاء (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 13). وكذلك الفرمان الذي أرسله السلطان عبد الحميد الأول(1774-1789م) إلى الداي محمد باشا في أواخر صفر 1193هـ/1779م الذي تضمّن الإعلام بولادة بنت للسلطان والأمر بإجراء مراسيم الاحتفال التقليدي على النحو الذي سبقت الإشارة إليه (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 14).

8.3 مراسلات تتضمن تفاصيل الهدايا التي كانت ترسل من دايات الجزائر

كانت الهدايا التي يتبادلها الطرفان من بين التقاليد الدبلوماسية السائدة في ذلك العصر، ليس فقط بين إيالة الجزائر والدولة العثمانية فحسب؛ بل بين كافة الدول. وعليه؛ فإنه من الطبيعي ألا ينقطع تبادل الهدايا بين الولاة العثمانيين في الجزائر وبين السلطان العثماني.

وعند التدقيق في الوثائق الخاصة بالعلاقات بين الدولة العثمانية والجزائر ضمن رصيد المكتبة الوطنية الجزائرية، نجد عدة رسائل تم تبادلها بين الطرفين، ذكرت فيها تفاصيل الهدايا التي كانت ترسل من الجزائر إلى السلطان العثماني. إذْ تذكر بعض تلك الوثائق التي لوحظ بأنها مذيلة بتاريخ إرسالها، وتضمنت إرسال أحد ولاة الجزائر - لم يُذكر اسمه - لعدة هدايا إلى السلطان العثماني الذي لم يرد اسمه هو الآخر في الوثيقة (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 03). وقد تضمنت هذه الوثيقة تفاصيل عن الهدايا المرسلة التي كانت على النحو التالي (الوثيقة رقم: 1، قسم الملاحق):

- 05 قطع أثواب
- برنس حرير أبيض مطرز بالذهب
- شال مطرز بالذهب
- حزام عسكري مطرز بالذهب
- حائكان قرمزيا اللون مطرزان بالذهب.

ولم تكن الهدايا ترسل إلى السلطان فحسب؛ بل كان يتم تبادلها بين ولاة الجزائر وكبار الشخصيات المتنفذة في الدولة العثمانية. ومن أمثلة ذلك إحدى المراسلات التي تتضمن إرسال هدايا

من داي الجزائر إلى قائد الأسطول العثماني. والعكس حيث إن هذا الأخير كان يرسل هدايا إلى الداي (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 59).

9.3 تقارير ذات طابع أمني أو عسكري

تزخر المكتبة الوطنية بعدة رسائل تتناول موضوعات مختلفة، تمت ترجمتها عن أصول تركية وجمعها في وثيقة واحدة. كما في الوثيقة رقم 59 التي ورد فيها عدة موضوعات كلها تدخل في القضايا المتعلقة بالعلاقات العثمانية الجزائرية. ويفهم من سياق الرسالة أنها مرسلة من طرف الحاج عثمان وكيل الجزائر في إستانبول إلى الداي حسن باشا صادرة في 13 صفر 1211هـ/1776م. كما اشتملت على مراسلات بين والي الجزائر وقبودان داريا kaptanı- derya (أنظر التعليق رقم: 9)، وتضمّنت الاستيلاء على سفينة مالطية على متنها خمسون أسيرا مسلما، وطلب والي الجزائر بأن يبني مسجدا في جزيرة الطيور kuş adası وشراء بعض الحاجيات الخصوصية له من إستانبول وتحمله مصاريف إصلاح مسجد احترق في إزمير، إضافة إلى موضوعات تتعلق بالمجندين إلى الجزائر.

10.3 وثائق تخص الترقيات العسكرية البحرية بخاصة

إن الترقيات في سلك الجيش البري أو البحري كانت صلاحيتها في يد السلاطين العثمانيين ولم يكن يملكها باشا الجزائر، فقد بينت الوثائق احتواءها على فرمانات من السلاطين العثمانيين أو وزراء بالباب العالي التي كانت ترسل إلى رؤساء البحرية وفي بعض الأحيان إلى حكام إيالة الجزائر تتضمن تعينهم بمنصب قابودان داريا وهو القائد الأعلى للبحرية. كما كانت ترسل مختلف التعيينات الخاصة بالرتب الأخرى أيضا. فمثلا عند فتح وهران سنة 1792 تم تكريم حسن باشا من قبل الباب العالي بمنحه رتبة وزير. وهذا لم يكن يخص إيالة الجزائر فقط، بل حتى باقي الإيالات العثمانية الأخرى كتعين محمد علي واليا على الشام ومنحه لقب سرعسكر الروملي وتعيين ابنه إبراهيم باشا واليا على الروملي بلقب سرعسكر الروملي أيضا. كما كان الباب العالي يعين وكيل الخرج جديد للبحرية الجزائرية كلما اقتضت الضرورة ذلك. كما نصت الوثائق أن قبودان داريا نفسه كان هو من يعين وكيل الجزائر بأزمير. وغيرها من التعينات التي كانت تتم على مستوى البحرية الجزائرية أو العثمانية (المجموعة 3190، الوثيقة رقم: 54، 200، 244، المجموعة 3204، الوثيقة رقم: 46).

الخاتمة ونتائج الدراسة

هذه مجمل الموضوعات التي اشتملت عليها وثائق المكتبة الوطنية، المتعلقة بالعلاقات العثمانية الجزائرية. وبناء على ما تمّ عرضه يتضح لنا أن العلاقات العثمانية الجزائرية كانت ضاربة في العمق الاستراتيجي الذي ربط مصير البلدين. فالمراسيم السلطانية التي كانت تتوالى على الجزائر تناولت مختلف جوانب العلاقات السياسية والعسكرية والأمنية. وهي القضايا التي كانت تشكل الهاجس الأكبر الذي كان يشغل بال المسؤولين في الجزائر وفي الباب العالي. ولا شك أن هذه القضايا لا تمثل كل مجالات العلاقات العثمانية الجزائرية، بل تمثل أهمها في ذلك العصر. وهذا لا ينفي وجود جوانب أخرى لا تقل أهمية، تستحق هي بدورها أن تُدرس بعمق من خلال وثائق المكتبة الوطنية أو من خلال وثائق المركز الوطني للأرشيف بالجزائر. وهي بلا شك سوف تعطينا ملامح أكثر وضوحا لتاريخ العلاقات الجزائرية العثمانية خلال الفترة العثمانية.

الملاحق: وثائق نموذجية من أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية

الملحق (01)

وثيقة من أرشيف المكتبة الوطنية مؤرخة في 1177ه/ 1764م.وهي عبارة عن مرسوم سلطاني صادر عن السلطان مصطفى الثالث، ويقضي بإعادة تعيين الداي علي باشا بيلربايا على الجزائر

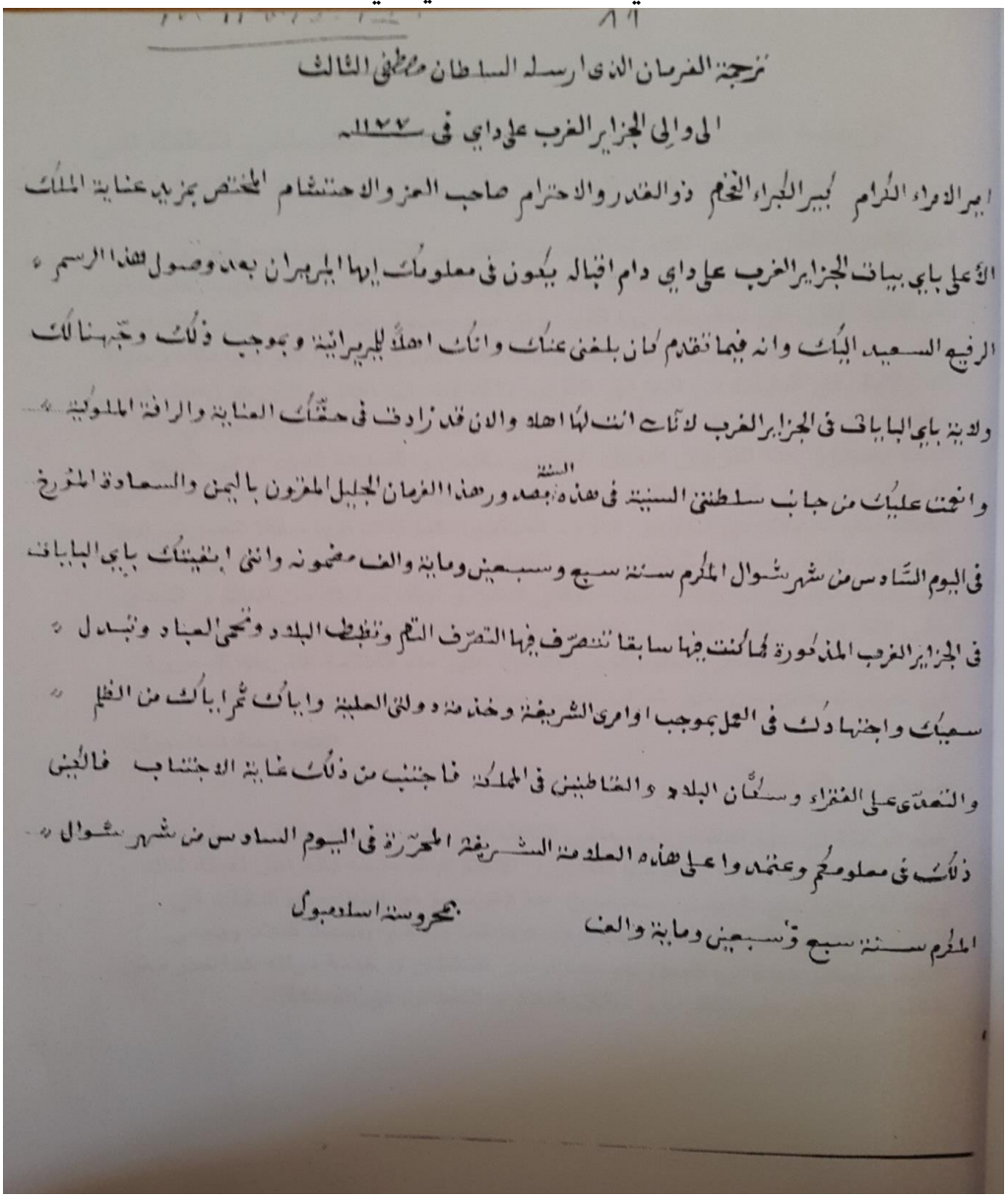

ترجمة الفرمان الذي ارسله السلطان مصطفى الثالث

الى والي الجزاير الغرب علي داي في سنة ١١٧٧هـ

امير الامراء الفخام كبير الكبراء الفخام ذو القدر والاحترام صاحب العز والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى باي بياك الجزاير الغرب علي داي دام اقباله يكون في معلومك ايها البرهان بعد وصول هذا الرسم الرفيع السعيد اليك وانه فيما تقدم كان بلغني عنك وانك اهلا للبرايته وبموجب ذلك وجهنا لك ولاية باي الباياك في الجزاير الغرب لانك انت لها اهلا والان قد زادك في حقك العناية والرافة الملوكية وانعمت عليك من جانب سلطنتي السنية في هذه السنة بقصد ورهذا الفرمان الجليل المقرون باليمن والسعادة المؤرخ في اليوم السادس من شهر شوال المكرم سنة سبع وسبعين ومايه والف مضمونه وانني ابقيتك باي الباياك في الجزاير الغرب المذكورة كما كنت فيها سابقا تتصرف فيها التصرف التام وتظبط البلاد وتحمي العباد وتبدل سعيك واجتهادك في العمل بموجب اوامري الشريفة وخدمة وملتي العلية واياك ثم اياك من الظلم والتعدي على الفقراء وسكان البلاد والخاطبين في المملكة فاجتنب من ذلك غاية الاجتناب فالبني ذلك في معلومك وعتمد واعمل على هذه العلامة الشريفة المحررة في اليوم السادس من شهر شوال المكرم سنة سبع وسبعين ومايه والف

بمحروسة اسلامبول

الملحق (02)

وثيقة من أرشيف المكتبة الوطنية مؤرخة في 1176هـ/1763م. تتضمن فرمانا صادرا من السلطان محمود الثاني يقضي بإعادة تعيين الداي محمد باشا بيلربايا على الجزائر

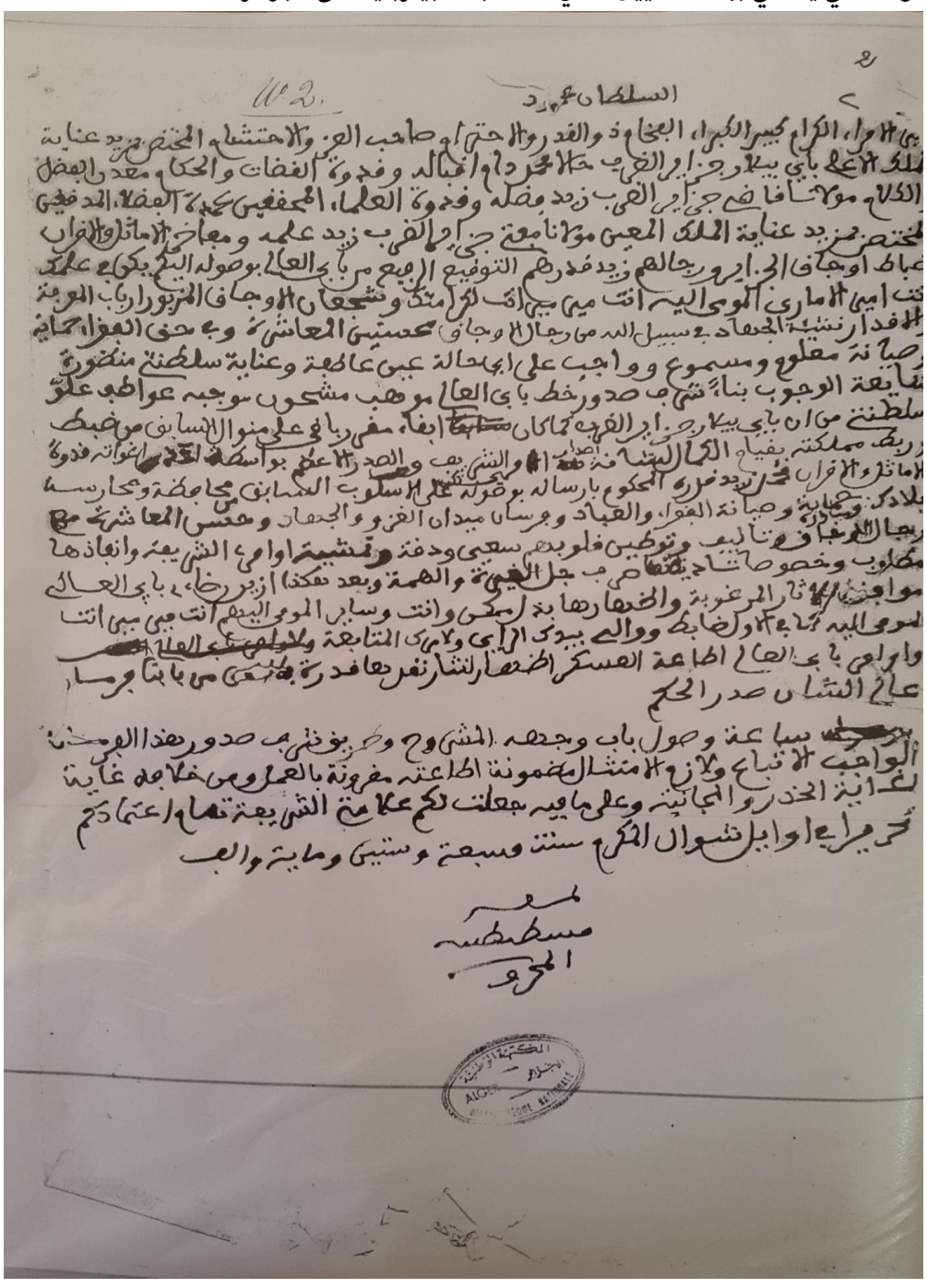

الملحق (03)

وثيقة من أرشيف المكتبة الوطنية، تتضمن فرمانا سلطانيا مرسلا من طرف السلطان محمود الثاني إلى بيلرباي الجزائر الداي حسين. والوثيقة مؤرخة في سنة 1235ه/1820م. وتتعلق بإرسال سفينة مجهزة بمختلف المعدات الحربية بناء على طلب الداي حسين.

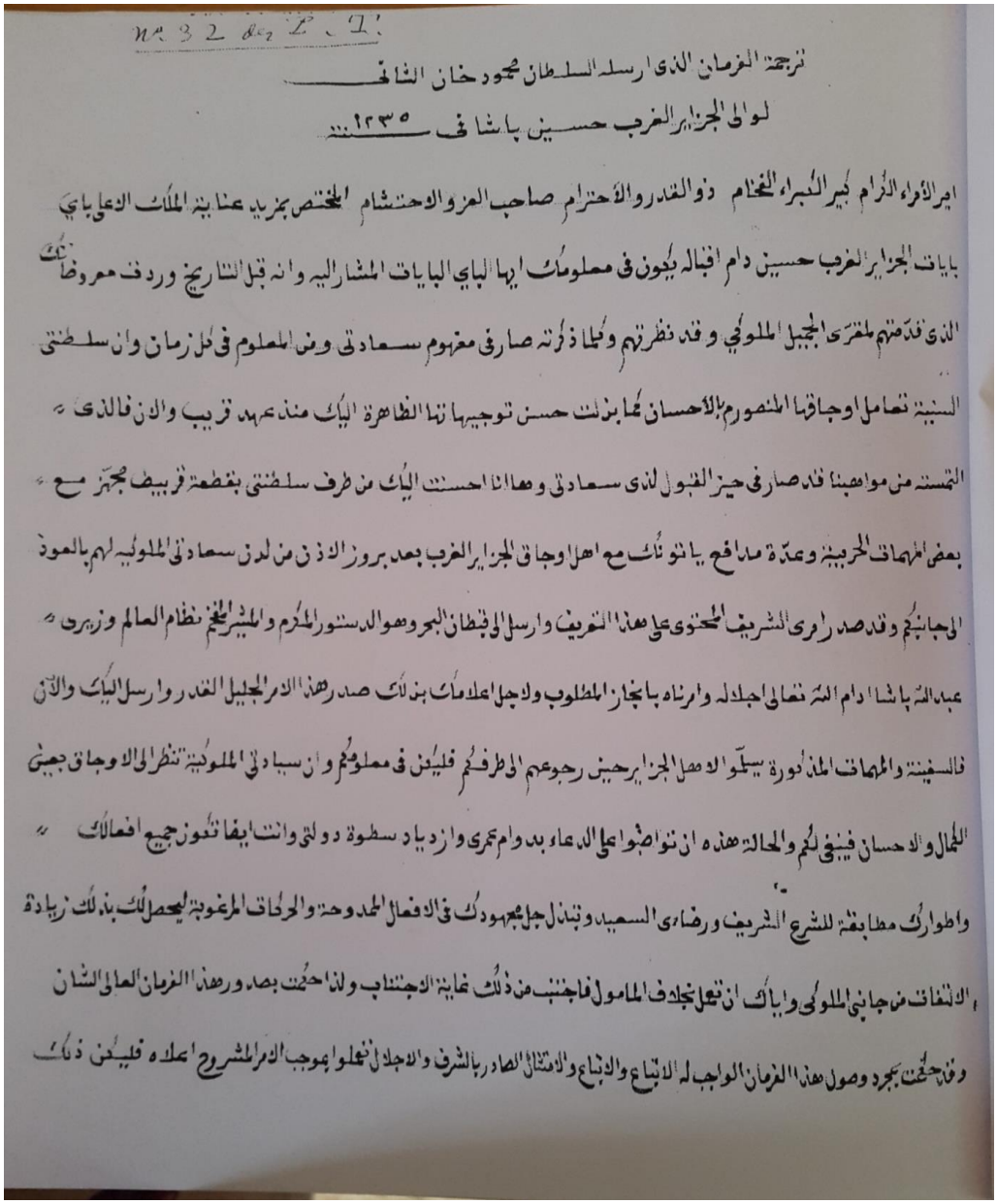

نرجمة الفرمان الذي ارسله السلطان محمود خان الثاني
لوالي الجزائر الغرب حسين باشا في ١٢٣٥ سنة

امير الأمراء الفخام كبير الكبراء الفخام ذو القدر والاحترام صاحب العز والاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الاعلى باي
بايات الجزائر الغرب حسين دام اقباله يكون في معلومك ايها الباي البايات المشار اليه وانه قبل التاريخ وردت معروضاتك
الذي قدمتم لمقرنا الجميل الملوكي وقد نظرتهم وتلما ذكرته صار في مفهوم سعادتي ومن المعلوم في كل زمان وان سلطنتي
السنية تعامل اوجاقها المنصور بالاحسان كما بذلت حسن توجيهها تنا الظاهرة اليك منذ عهد قريب والان فالذي
التمسته من مواهبنا قد صار في حيز القبول لذى سعادتي وهانا احسنت اليك من طرف سلطنتي بقطعة قربيط مجهز مع
بعض اسلحة الحربية وعدة مدافع يانوتك مع اهل اوجاق الجزائر الغرب بعد بروز الاذن من لدن سعادتي الملوكية لهم بالعود
الى جانبكم وقد صدر امرى الشريف المحتوى على هذا التعريف وارسل الى قبطان البحر وهو الدستور المكرم والمشير المخدم نظام العالم وزير
عبد الله باشا دام الله تعالى اجلاله وامرناه بانجاز المطلوب ولاجل اعلامك بذلك صدر هذا الامر الجليل الغدر وارسل اليك والان
فالسفينة والمهمات المذكورة يسلموا لاهل الجزائر حين رجوعهم الى طرفكم فليكن في معلومكم وان سيادتي الملوكية تنظر الى الاوجاق بعين
الكمال والاحسان فينبغي لكم والحالة هذه ان تواظبوا على الدعاء بدوام عمري وازدياد سطوة دولتي وانت ايضا تكون جميع افعالك
واطوارك مطابقة للشرع الشريف ورضاء السعيد وتبذل جل مجهودك في الافعال الحمدوحة والوجاق المرغوبة ليحصل لك بذلك زيادة
الالتفات من جانبي الملوكي واياك ان تفعل بخلاف المامول فاجتنب من ذلك غاية الاجتناب ولذا حررت بصدور هذا الفرمان العالي الشان
وقد حررت بمجرد وصول هذا الفرمان الواجب له الاتباع والامتثال الصادر بالشرف والاجلال فعلوا بموجب الامر المشروح اعلاه فليكن ذلك

الملحق (04)

وثيقة من أرشيف المكتبة الوطنية مؤرخة في 1240هـ/ 1825م. تتضمن أمرا سلطانيا من محمود الثاني إلى قبطان جزائر الغرب للمشاركة بوحداته في محاصرة شبه جزيرة المورة (اليونان حاليا).

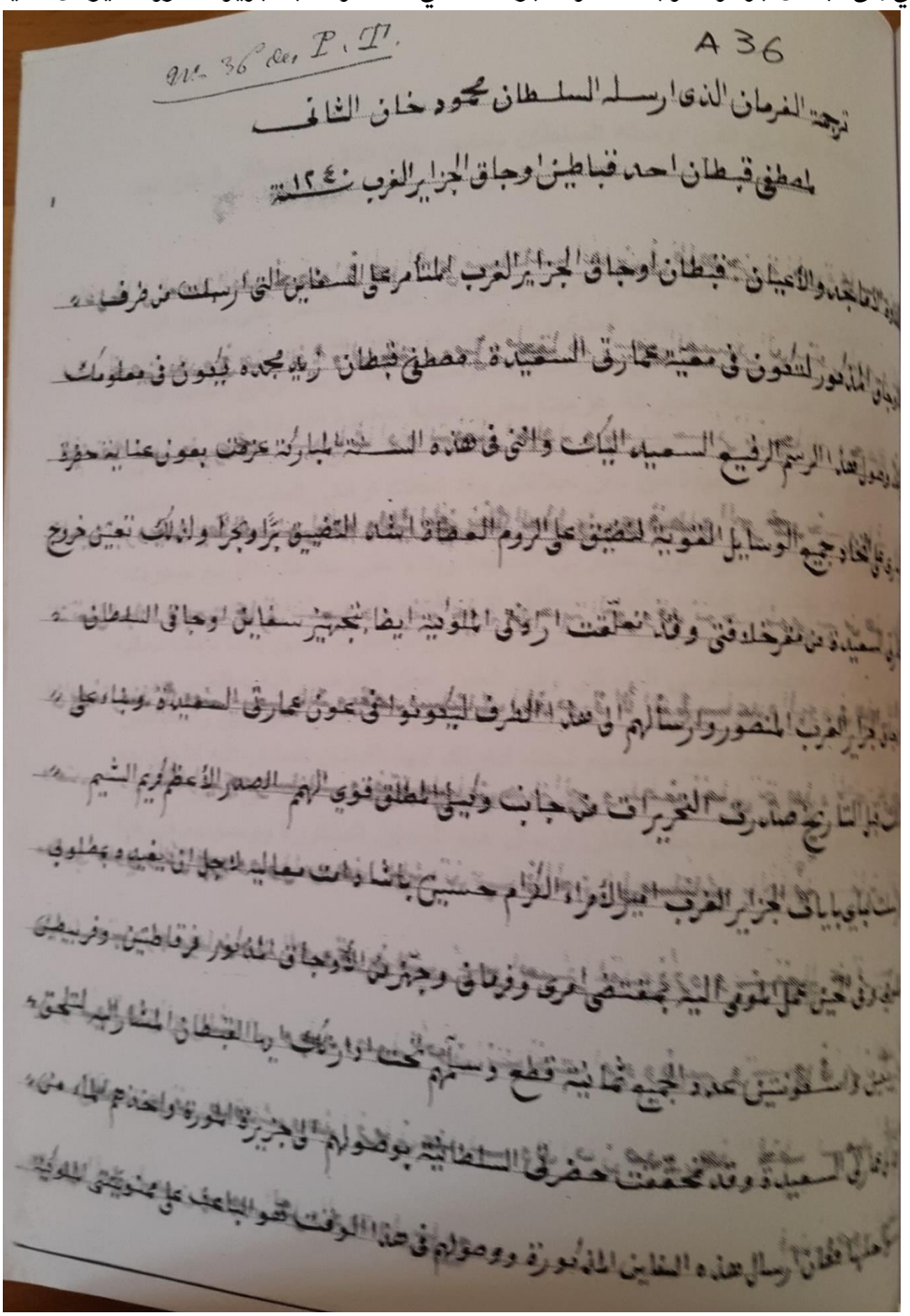

الملحق (05)

وثيقة نموذجية صادرة سنة 1204ه الموافق لـ: 1789م. من أرشيف المكتبة الوطنية تحتوي على قائمة الهدايا التي كان يرسلها ولاة الجزائر إلى الباب العالي.

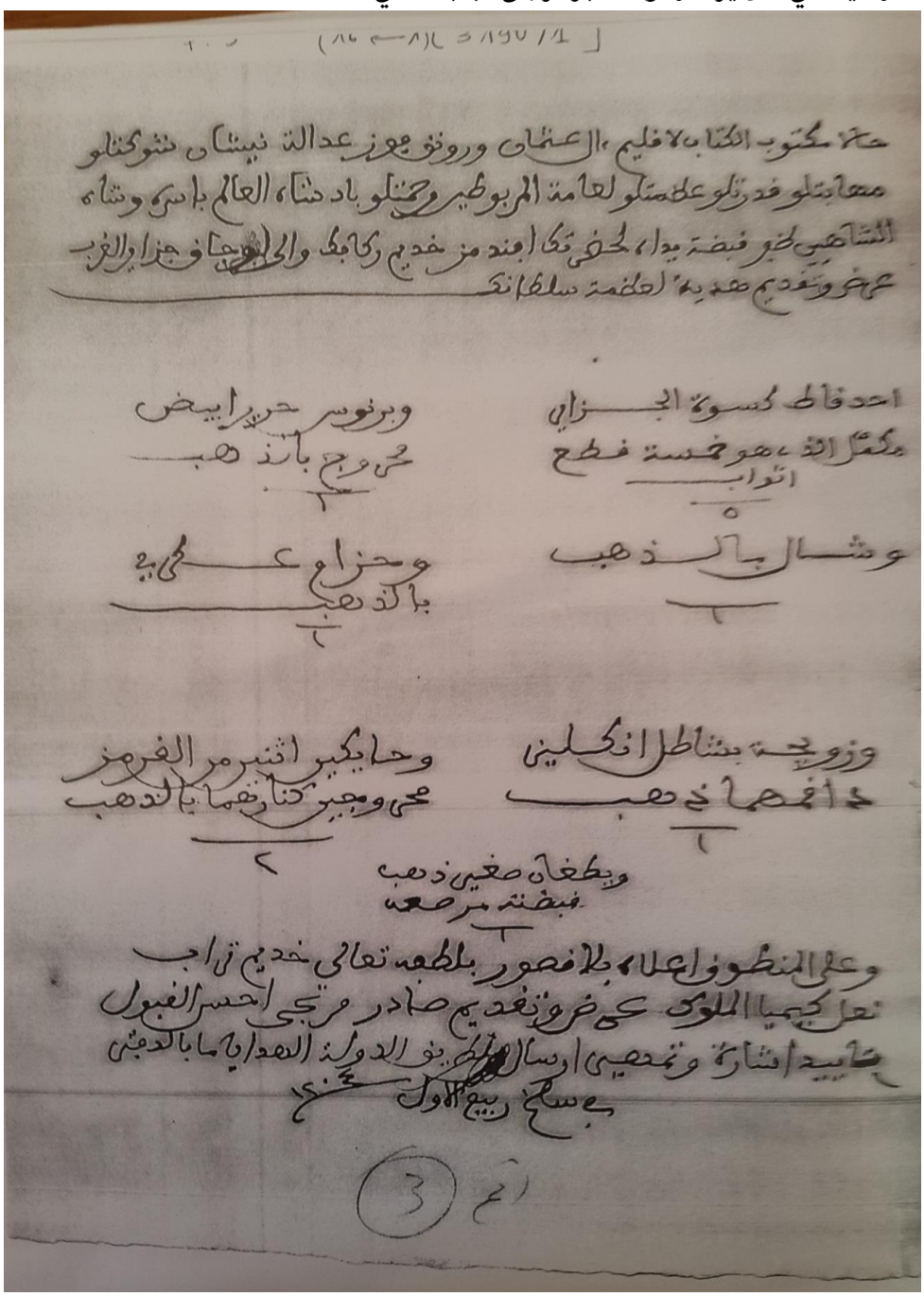

التعليقات:

1- قام الأخوان بربروس بمحاولة ثانية لفتح بجاية لكنها انتهت بالفشل بسبب نفاذ البارود ورفض السلطان الحفصي تزويدهما به، (بربروس. 2010: 72، 73)

2- فرمان Ferman: الأمر السلطاني الرسمي المكتوب الصادر في قضية من القضايا مختوما بطغراء السلطان، وكان يتم تدوينه بالخط الديواني في الديوان الهمايوني، (صابان، 2000: 164).

3- بكلربكي Beylarbeği: أمير الأمراء، وهو من أعلى المناصب في الدولة العثمانية، وكانوا يعينون كولاة على الولايات العثمانية، (صابان، 2000: 164).

4- أنظر: مراسيم إعادة تعيين الوالي المذكور في الفرمان الصادر سنة 1172هـ/1759م (دون ترقيم) بالملف نفسه والمجموعة نفسها؛ وأيضا الفرمانان الصادران سنتي 1173هـ/ 1760م، و1174ه/ 1761مـ- المتضمنان إعادة تعيين المذكور باي بايات الجزائر-وذلك في الوثيقة رقم: B.T .09- وكذا الوثيقة رقم:B.T.11.

5- إيالة İyalet: أكبر التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية، فقد كانت الدولة العثمانية مقسمة إلى إيالات وتنقسم هي بدورها إلى سناجق، والسناجق إلى أقضية، والأقضية إلى نواح، والنواحي إلى قرى، وكان يشرف على الإيالات أمير الأمراء الذي يمثل السلطان العثماني بها، ثم الوزراء بعد القرن السادس عشر، (صابان، 2000: 164).

6- أوجاق Ocak: تعني في اللغة التركية موقد، وأطلق على الجماعة التي يلتقي أفرادها في مكان واحد، وأطلق على صنف من الجند في صفوف الجيش الإنكشاري كالسباهية، (صابان، 2000: 164).

7- الباب العالي Bab-ı Ali: مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية، وقد أنشأه السلطان محمد الرابع سنة 1654م، وكان للباب العلالي أهمية كبيرة في القرن 19م، خاصة في عهد السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني، (صابان، 2000: 164).

8- تعريب للكلمة التركية Akdeniz وهو البحر الأبيض المتوسط.

9- تعريب للكلمة التركية Donanama وهو الأسطول.

10- قبطان داريا kaptanı Derya: هو اسم أعلى منصب بحري في الدولة العثمانية، (صابان، 2000: 164).

قائمة المصادر والمراجع

- المجموعة 3109، المجموعة 3205، المجموعة 3204 من أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، قسم المخطوطات.
- ابن أبي الضياف، أحمد. (1963). إتحاف *أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان*. ج2. ط2. تونس: الدار التونسية والشركة التونسية للنشر والتوزيع.
- بربروس، خير الدين. (2010). *مذكرات خير الدين بربروس*. ترجمة: محمد دراج. الجزائر: شركة الأصالة للنشر.
- جوليان، أندري شارل (1978). *تاريخ إفريقيا الشمالية*. تعريب: محمد ميزالي والبشير بن سلامة. ط3. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- دحماني، توفيق. (2009). *دراسة في عهد الأمان القانون الأساسي والعسكري للجزائر في العهد العثماني*. الجزائر: الدار العثمانية.
- دراج، محمد. (2010). تأسيس إيالة الجزائر. *مجلة عصور*. المجلد 9. العدد 1. ص 26-37.
- دراج، محمد. (2015). الدخول العثماني على الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1543. ط3. الجزائر: شركة الأصالة للنشر.
- الزبيري، محمد العربي. (1985). مدخل إلى تاريخ المغرب العربي. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- صابان/سهيل. (2000). المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية.
- مجهول. (2009). سيرة المجاهد خير الدين. تحقيق: عبد الله حمادي. الجزائر: دار القصبة للنشر والتوزيع.
- المزاري، ابن عودة أغا. (1990). طلع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن 19. ج1. تحقيق: يحي بوعزيز. بيروت: الغرب الإسلامي.